

السيكولوجية الحديثة

الفرزة الجنسية في التحليل النفسي

يعقوب قام

في سنة ١٨٥٥ كان فرويد في باريس يدرس تحت ارشاد شاركو ضروب العلاج بالتحليل النفسي وكان مما يقوله هذا الأخير لفرويد ان « السبب الأصلي في كل عقدة نفسية هو المسألة الجنسية » فكان فرويد يعجب لماذا لا يضع الاستاذ نظريته هذه ويدافع عنها أمام الناس . وعلى كل حال لم يفصل شاركو شيئاً من هذا وترك هذا الميدان دون ان يزعم هذا الزعم بطريقة رسمية ثم بدأ فرويد يعلن هذه النظرية للناس وينضح عنها بكل ما أوتي من جهد وقوة ، ولم يقف عند هذا الحد بل تمادى في هذا القرض عادياً جعلنا نعتقد انه لا يرى في الانسان شيئاً او مزعماً الاً من هذه الفرزة ، لا بل نستطيع ان ندعو هذه المدرسة بمدرسة السيكولوجية الجنسية من غير ان نكون متعنتين او متفترين بوجه من الوجوه

كنت أتحدث في هذا مع صديق لي من المشتغلين بالسيكولوجية في مصر . فكان مما قاله لي اني لا افهم فرويد كما يجب ان يفهم ، قلت قد يجوز ، فأنا لا ادعي ان معصوم من القصور في الفهم ، ولا ادعي اني افهم كل ما يمر بي في مطالعتي . اذا اني اذكر مرة اني قرأت كتاباً عند صفحاته حوالي الاربعمائة وثمته سمون قرشاً دفعتمها من مالي الخاص دون ان افهم من هذا الكتاب شيئاً على الاطلاق ، فلا يجب ان اقطع برأي في مسألة فرويد ، ولا يجب ان أتحدث في طريقة عرضي لآرائه ، ولكن ما قولك في ان كل من قرأهم من علماء النفس متفقون على أنهم فهموا ما فهمت منه أنا ، وما قولك في أنهم يفهمون على ان نظريته في السيكولوجية مبنية في الاغلب على « الفرزة الجنسية » وعلى كل حال سواء أكان اتهام صديقي لي على حق أم على غير حق فاني اعتمد ان أترك الحكم للقراء في هذا الموضوع ، اريد ان أبسط امامهم نظريته ولهم وحدهم ان يحكموا في هذا النزاع

ينكر فرويد الزعم بأن سيكولوجيته مبنية على الفرزة الجنسية فقط . ينكر هذا ويطح في الانكار . ولكنه يزعم ان أهم شيء في التحليل النفسي هو العوامل الجنسية . هذا من جهة ، واما من الجهة الأخرى فان جميع حالاته يرجعها الى عوامل جنسية في تحليله ، لا بل ينسب جميع الظواهر النفسية على هذا الاساس ، فكانه ينتفض بالحنين ما بينه باليسار ، واضن ان الخلاف بينه

وبين أدلّ نصّب في هذا الميدان ، واقفصل التلميذ عن استاذة لهذا السبب دون غيره . واستعرت بينهما الحرب لهذا وليس لشيء آخر ، فبينما يزعم فرويد ان جميع الحالات النفسية التي طالجها ترجع الى نزاع جنسي في النفس او الى نزوع جنسي لم يتحقق بشكل من الاشكال ، بينما يزعم فرويد هذا بقول أدلّ ان رغبة التسلط هي الخافز لنا في جميع انواع النشاط ، وان الالتواء في هذه النزعة او التصور في تحقيق غايتها هو السبب الاساسي في الاضطرابات النفسية ، وتكفي ان تكون المسألة الجنسية هي محور الخلاف ، وسبب القطيعة بين الاثنين لكي اكون مطمئناً الى اني لم أعد الصواب حين ازرع ان محور التحليل النفسي على طريقة فرويد هو المسألة الجنسية ، واذا كان صديقي الذي اوردت قوله فيها سبق لم يقتنع بعد فليرجع الى اسباب الخلاف بين فرويد وبين بوج ، فان بوج فهم ما فهمت ، واختلف معه فيما اختلف معه فيه الآن ، فما ذنبي يا ترى اذا كان الجميع قد فهموا من فرويد ما فهمت

ونظريات فرويد في الفريزة الجنسية يتلو بعضها بعضاً ويأخذ بعضها برقاب بعض حتى لا تكاد تفيق من كثرة تزاحمها امامنا . فالانسان في رأيه لا يأكل او ينام او يلهو او يجده او يفكر او يحلم الا بدافع من الجنس . وقد يكون واعياً للدافع الجنسي ، وقد لا يكون واعياً ، ولكن الدافع الجنسي موجود بلا شك في جميع الحالات

طفل في السنة الاول او في الشهر الاول من حياته ، تضعه أمه على صدرها وترضعه فيشبع ويمتص الطعام ويريد ان يترك نفسه ليلهو بنفسه ويلعب ، يشاهد الدنيا حوله ويتلصح الحركات فيها بعينيه ، وبينما هو يراقب المناظر الطبيعية والاجتماعية حواليه يضع ايهامه في فمه ويمتصه ، ثم يمتصه وقتاً طويلاً ، تدور انت تبحث عن النافع لهذا العمل فتجد اجوبة تتعدد بتعدد الجيبين والنوافع الممكنة لمثل هذا العمل ، قد تقول ، وقد تصيب فيما تقول ان هذا الطفل يلهو بهذا العمل ، وقد يقول غيرك لنته محتاجة فهو يضع اصبعه فيها ليبرد من هياجها . قد يقول أحدنا هذا او شيئاً مثله ، وقد نخطيء او نصيب في البحث من العلة في تصرف الطفل ، ولكن فرويد يزعم ان عمل الطفل هذا هو الفريزة الجنسية بعينها ، او هو وظيفة هذه الفريزة عند الاطفال ، وبالطبع هذا زعم لا تقبله لانه لا يقوم عليه دليل اولاً ، ولانه يتعارض مع الفروق العقلية في أبسط مظاهره

ومثل آخر على ما يراه فرويد في شأن هذه الفريزة التي اوشك ان لا يرى في الانسان سواها— انسان يرى فيها يرى النائم انه يتعلق سلم منزله او اي منزل آخر . بالطبع لا تكون هذه الحقيقة هي كل محتويات الحلم ، وانما يتبعها مشاهد ومظاهر اخرى ، فلو سألتني هذا الانسان في معنى حلمه لأجبت ان معدته ليست على ما يرام او ان احد اعضاء جسمه لا يؤدي وظيفته كما يجب ان يؤديها ، او ان حرارة جسمه ارتفعت في اثناء النوم لسبب من الاسباب ، وان لم يعجبني واحد من هذه الآراء اقول له انها اضغاث احلام . اما فرويد فيفسره هكذا : في صعود السلم توافق من الحركات

الابتدائية Rhythm ، فالإبعاد بين الدرجات متساوية ، والحركة التي يأتيها الانسان في سعوره تكون بالتالي متوافقة ، ثم يجب ان لا ننسى ان الحركات التي نستشع بتحقيق الغريزة الجنسية فيها توافق أيضاً ، فيكون معنى هذا السلم هو في الواقع تماثل من تلك الغريزة على تحقيق ذاتها بشكل عامض مبرقع ، فهذه الغريزة تريد ان تحقق على اي حال ، ولما كان تحقيقها تقوم في سبيل سعوات حية لا قبل للواعية بالتغلب عليها ، فتحقق بطريقة لا تستطيع ان تعترض عليها الواعية

وهذا التفسير لا يستقيم لاقبالنا على اي حال ، لانه مناقض لاسط قواعد التدفق السلم Common sense ولا ارى ان هنالك علاقة بين سعور السلم والغريزة الجنسية ، ومآلة التوافق هذه ان هي الا تكاة لا تصلح لتدعيم هذا الرأي بحال من الاحوال ، لاني ارى هذا التوافق او هذا الابقاع Rhythm في للنشي والمدو والسوم ، واره في الطيور وهي تغير والحجران وهو يسير ، واره في حريان الماء واهتراز الاشجار واره في المرستيق وفي الشعر والنثر ، وبالاختصار انا ارى هذا التوافق في كثير من المظاهر الطبيعية من التحرم في انلاكها الى اللرات في مداراتها ، وبالطبع لا يستطيع الانسان ان يزعم ان جميع هذه هي مظاهر للغريزة الجنسية بشكل من الاشكال

يقولون ان الغريزة الجنسية عند فرويد لا يقعد منها ما تقصده عادة من هذا الاصطلاح في اللغة العادية وإنما يقعد امراً اوسع واعرض مما تواضع عليه الناس ، فليس هو قاصراً على الدوافع الطبيعية التي تجذب الذكر الى الانثى من جميع الاحياء ، وليس الغرض منه فقط إخلاف النسل واشباع الرقبة الطبيعية ، وإنما معناه عند فرويد اعم واوسع من هذا بكثير ، تحب الجمال من الغريزة الجنسية وحب السلطان والشهرة منه كذلك ، وغريزة حب البقاء والنسل من الغريزة الجنسية

ومن نظن ان هذا تعسف في التفسير ، ومن قبيل تسمية الاشياء بغير مسمياتها ، فثأتهم في هذا شأن من يطلق مرضاً معيناً على جميع الامراض ، او لوناً معيناً على جميع الالوان ، وعلى هذا القياس يصح ان نسمي مجموعة الوان الطيف الشمسي احمر او اصفر ، على زعم اننا تقعد باللون الواحد جميع الالوان ، مع ان هذا لا يصح لان فيه كثيراً من الخلط والارتباك الذي لا يعود بفائدة على احد لا بل فيه ضرر كثير وتشويش للفاهم

وعلى هذا القياس نوزم انه سواء اراد فرويد بالغريزة الجنسية ما نريد ، ام اراد بها اكثر مما نريد فالنتيجة في الحالين سواء ، هي انه افضل من حساب معظم الدوافع النفسية التي تحفز الناس على العمل والحركة والسعي للحياة في مجموعها

يتبين هذا الاغفال للدوافع النفسية المتباينة من كثير مما كتب فرويد ، ومن مذاهبه في علم النفس حتى وان كنا نحن لا نغلب الى هذا الاغفال ، فنلا يزعم فرويد ان الصبي يميل لامه ومحبها اكثر مما يحب اياه . وينصب نفسه عنها مذاقاً ويقف منها موقف القوي يصحي الضعيف ، ونحب الابنة ابها اكثر مما نحب امها ، وتظهر لايها العواطف الرقيقة المحببة ، التي تظهرها الانثى عادة

للذكر وليس هذا فقط ولكنها تماخر بأبيها وتعجب به وتزعم أنه اقوى جميع الآباء وامضاهم
مزعة واشدهم بأساً

وزيد فرويد على ما تقدم ان الصبي يغار من ابيه للعلاقة القائمة بين الوالد والوالدة ، ويحمق
عليه ويورد لو اختفى ابوه وترك الام للصبي وحده ، وكذلك البنت تغار من امها ، وتود لو احتلت
هي للمكان الممتاز عند ابيها الى آخر هذه المزاعم ، ثم يختم فرويد مزاعمه هذه بأن يمطي لهذه
الظاهرة اسماً قديماً حتى تبين عليها المسحة الكلاسيكية ، فيدعم الاسم الطنان هذا التخرج الذي
اقل ما يقال فيه انه قد لا يكون هو الواقع

اما ان هذه الظاهرة النفسية تظهر على بعض الاولاد فقد يجوز لابل ربما نزع منها محتملة ،
ان الابن يحب امه أكثر من ابيه ، ويجوز انه يغار من الاب ايضاً ، ثم يجوز ان هذه الظاهرة
النفسية تبين على البنت ، ولكن ماذا بعد ذلك ، قد نعلم ان هذه الظاهرة النفسية موجودة في
الواقع ، فكيف نعلمها ؟ وهل لا يمكن تلميحها الا عن طريق الفريزة الجنسية ألا يمكن بحال ان
تكون هنالك حوائج نفسية غير هذه ؟ هل اثبت فرويد بما لا يدع مجالاً للشك ان المدافع لهذه
الظاهرة هو الفريزة الجنسية ؟ الحق انه لم يفعل شيئاً من هذا وانما هو قد زعم هذا الزعم وذهب
هذا المذهب ، ولكنه لم يقم الحجة القاطعة على صحته

ثم ما قول هذه المدرسة في هذه الظاهرة ؟ ابن يحب اباه أكثر من امه ، وابنة تحب امها
أكثر من ابيها ، هل هذا مستحيل ؟ هلاً يمكن ان نجد هذه الظاهرة بنفس الكثرة التي نجدها
في الظاهرة الأخرى ؟ وهل هذا الحب وهذه الثيرة في هذه الحالة ناتجتان ايضاً من الفريزة الجنسية
الحق ان هذه المدرسة تفالت في توكيد الفريزة الجنسية الى حد انها فقدت توازنها ، وعرضت
نفسها للتقدي الشديد ، لقد اعنت في هذا المذهب حتى اصبحت لا ترى في رضاعة الطفل من ثدي امه
مظهراً من مظاهر الفريزة الجنسية ، واظنه من المقول ان زعم ان حركات الرضاعة ان هي الآ
عمليات عضلية تتطلبها الرضاعة وكفى ، فكل عمل يتطلب بعض الحركات العضلية من غير ان تكون
للك الحركات غاية خارجة عنها ، كتخريك القراعين عندما يجزي الإنسان ، وهذا بالطبع لا يستدعي
من ان نبحت له عن دوافع نفسية ، اذ يكفي ان نقول فيه انه حركات يستلزمها الجري

ومع كل ما تقدم نستطيع ان نؤكد للقارئ ان الفرويدية خضعت للسيكولوجية الحديثة خدمة
لا تقدر ، وانه لولا هذا للذهب لبق كثير من المسائل النفسية مستعصياً على الفهم ولصار من
المتعسر على علماء النفس ان يعرفوا السوانع لكثير من تصرفات الانسان ، ولمجزوا ايضاً عن فهم
كثير من الاسباب الاساسية لبعض المشكلات النفسية

فان كنا قد تعرضنا لفرويد بالتقدي فذلك لاننا نشعر بما له علينا من الفضل في الكشف عن
بعض المبادئ الاساسية للسيكولوجية الحديثة